الدعاية

أسباب نجاحها

عُدَّت الدعاية علماً . ولكن ليس علماً بالمعنى الدقيق للعلم ، أعني يمكن تطبيق قواعد ثابتة وقوانين راسخة على ما يعمل من دعايات يقوم بها الأفراد أو الجماعات ، لأن مجال الدعاية مترامي الأطراف متشعب الفروع وطرقها غامضة غير معبدة ومسالكها شائكة وعرة. فميدان الدعاية ومجال نشاطها يتصل بالعقول مؤثرة في الحوادث ، ومتأثرة بها . والعقول والحوادث عنصران يخضعان لعوامل متغيرة متقلبة ، أبعد ما تكون عن صفات الثبات والاستقرار . ثم ان الداعية يخدم مبادىء ثابتة يضعها نصب عينيه ، ولكنها في نفس الوقت مطاطة فضفاضة . ويتوقف مقدار نجاحها على مدى تمسكه بهذه المبادىء ، إزاء ما يلاقي من مشاكل أو ما يواجه من عقبات ، أو اهماله أمر هذه الأسس وتلك المبادىء .

وقد فطن القائمون بأمور الدعاية الى ميدانها الواسع الفسيح وعرفوا أن هنالك طريقة مباشرة آلية تعمل على سحق المعارضة جهراً وعلانية ، وأخرى غير مباشرة وهي وسيلة دقيقة حذرة عاقلة ، توحي بالآراء التي ترى بها في قلوب الناس في كياسة ولباقة ، فلا يفطن الى ما يترتب الى أذهانهم من آراء طريفة ومعتقدات جديدة . ويستقر في روعهم انهم قد وصلوا الى ما وصلوا اليه من آراء وعقائد بمحض قوة ملاحظتهم ، ودقة استنتاجهم ، ولكل من هاتين الوسيلتين — المباشرة وغير المباشرة — قيمته وأثره في المحيط الذي خلقت له ، ولكن الداعية الذي يعتمد على الطريقة غير المباشرة ، أمامه مجال أوسع وأفسح لمدى نشاطه وهمته . والداعية لكي تكون له القدرة على املاء رأي من الآراء على جمهوره ، يجب أن يستند الى هيئة سياسية منظمة تشد من أزره وتكون له عوناً ، كما يجب أن تكون له شخصيته القوية البارزة في جماعته ، المسيطرة سيطرة مباشرة على اولئك الذين يود التأثير فيهم ، فاذا تشعبت الأغراض وتفرّعت الأهداف حيث يجب أن تلتقي وتتصل بعضها ببعض ، فان الاغراء هو الوسيلة التي يجب اتباعها وهي وسيلة لها أهميتها وميزتها ، إذ هي كفيلة باكتساب أتباع أشد اقتناعاً وأقوى ثقة بما يؤمنون . والقول المأثور: الرجل الذي تقتنع قسراً وضد ارادته ، يبقى على رأيه القديم ، خالداً ما يتردد وقعه على أذني الداعية فيحيره في أمره ، بينما تجد أنه عندما يلجأ الى الاغراء يثبت الغرور الكاذب والخيلاء الباطلة

في أذهان اولئك الذين اعتنقوا المذهب الجديد ، إذ انهم يؤمنون ايماناً صادقاً انهم قد وصلوا الى ما وصلوا اليه من آراء ومعتقدات عن طريق العقل ، أحراراً مستقلين ، لم ترغمهم قوة أو يخضعهم سلطان ، ولذا يكون من الصعب تحولهم ، إذ يجب عليهم في هذه الحال الاعتراف بما وقعوا فيه من أخطاء وبخاصة أن ليس هناك غيرهم يلقون عليه تبعة هذه الأخطاء ، ولذا نهم يميلون الى مقاومة كل حجج تتعارض ومبولهم ، حتى ولو كانوا في دخيلتهم يصرحون بأنَّ لها قوتها ووجاهتها .

ولأجل أن يضفي الداعية صفة البساطة والسهولة على ما يدعو اليه من معقد الأمور ، وضعت سبعة أسس سميت أسرار نجاح الدعاية السبعة . والداعية الذي يطبقها في حملاته المستمرة يتيح لنفسه فرصاً طيبة للفوز ، ولكن هذا التحديد يؤكد لنا بأن الداعية كثيراً ما يكون تحت رحمة الحوادث . ولا أهمية لمهارة الداعية أو مثابرة أو حسن اعداد خطط الدعاية ، وانما النجاح موكول للظروف ، إذ أن الداعية معرَّض في كل وقت بخطر الهزائم المتكررة بسبب التغيرات الفجائية في مجرى الأمور والتي ليس له عليها من سلطان ، لأن العواطف وتذبذبها والأهواء وتأرجحها من أكثر المشاكل تحيراً للعقول إزاء القضايا العامة لأن الشرارة التي تبعث الحياة في حركة من الحركات تختبر لغير سبب ظاهر . والدافع اليها يضمحل دون مبرر ملحوظ . فان معبودات جيل من الأجيال تحت رحمة محطمي الأصنام في الجيل التالي ، فاذا ما أخذ الداعية التكوين النفسي لمجتمع من المجتمعات او جماعة من الجماعات على انه ثابت لا يتغير ، فقد ارتكب أفظع الأخطاء وأنكرها ، فيجب عليه أن يكون دائماً على حذر وأن يعد سياسته بحيث تتفق ونفسية الجماهير . والقواعد السبع الآتية لها أثرها الفعال وهي دستور الدعاية .

سر نسيان الجمهور

١ — التكرار هو السر الأول من أسرار نجاح الدعاية : ومن سرعة نسيان الجماهير ما نراه منها في حادث من الأحداث يلمع فجأة في وسط الظلمات وينفذ برأتاً الى السطور الأولى في الصحافة ، ثم سرعان ما يخبو ضوؤه وتتزاحم الحوادث الواحدة أثر الأخرى قبل أن يجد الجمهور فسحة من الوقت ليتعرَّف أهمية هذه أو خطورة تلك ، ولكن يطوي النسيان هذه وتلك معاً وفي سرعة فائقة . ففي قضية قتل ، مثلاً ، يتهم فيها عامل زراعي أمي مجهول مغمور ، تتداولها ألسنة آلاف مؤلفة بالذكر والترديد . ولكن سرعان ما ينسى هؤلاء كل ما يتعلق بالقتل والقاتل ، ولا يعودون يذكرون حتى اسمه في مدى شهور قصيرة . ثم لنذهب الى الطرف المقابل لذلك . سياسي يأتي حماقاً تتخاطفه أسلاك البرق في مختلف

مناحي العالم وتتداوله الأقلام والأفواه بالنقد والتعليق في الصحف وعن أعنى أعواد المنابر، كما تشغل ذهن رجل الشارع فيناقشها مستحسناً أو مستهجناً لها ، ولكن سرعان ما يسدل عليها وعلى ما أثارت من ضجة ستار النسيان ، فكم منا يذكرون ، اذا سئلوا ، تصريح سير صمويل هور المشهور الذي ألقاه في جمعية عصبة الأمم عام ١٩٣٥ عما بذلت بريطانيا من جهود ليكف موسوليني عن نشاطه في الحبشة، بأن عرضت عليه عرضاً جديداً بشأن اعادة النظر في مشكلة المواد الخام .

وفي ضعف ذاكرة الجماهير والجماعات يقوم نجاح الدعاية وانتصارها المبين أو يكمن فيها فشلها الذريع . فذلك الضعف يساعد الداعية على أن يغير مسلكه دون أن تلتفت إليه الأنظار ، وفي نفس الوقت تلقى على كاهله واجبات وتحتم عليه التزامات . فيجب أن يكرر ويعيد دون أن يمل . ويجب على الداعية أن يقف إزاء ما يقع من الأحداث في كل يوم متحفزاً للعمل دائماً لا يفتر ولا يلين ، فاذا كان عمله مقصوراً على ان يبعث برسائله وتقاريره إلى رجال خاضعين للدولة ونظمها الاجتماعية والسياسية في كل ما يعملون ، كان عمل الداعية في هذه الحال سهلاً يسيراً بالقياس إلى غيره .

ولكن إذا كان الداعية يعمل دون أن تظاهره قوة رسمية ، بل وربما كان يعمل معارضاً الهيئة الحاكمة أو محارباً النظام الاجتماعي القائم، وجب عليه أن يكون ملماً بما تعقد من الأمور أو تشعب وتشابك منها ، بأن يعرض الموضوع الواحد في صور لا عدد لها ولا حصر لمختلفة الأوضاع متعددة الألوان ، لأن التكرار يورث الملال والسأم إذا لم يصطبغ في كل مرة بصبغة الجدة ، ويقعد الجمهور عن الاهتمام بما يدور حوله من مناقشات . ولكن الداعية إذا ثابر واكتسب إلى جانبه أعضاء جدد يتجهون اتجاهه ويأخذون برأيه ويؤيدون دعوته، فانه لا يلبث أن يظفر بتأييد بعض طبقات العامة ، وفي الوقت المناسب تصبح الدعوة التي ينشرها وآراؤه التي يبشر بها سدى العقول ولُحْمَتَها .

التكرار ، التكرار ، التكرار . لكن هو رائد الداعية فإن من المؤكد أن في كل مكان وزمان يوجد فريق من الناس يحاجون أو يناقشون ويتورون بالنقد أو التقريظ موضوع الدعاية أيّاً كان هو، لأن العدد المحدود لأمر من الأمور هو إهماله ولبابه أو تناسيه والحملات العنيفة ، قطعاً ، أفضل له من تجاهله ، فمثلاً لما قذف المتندون سير صامويل موزلي بالأحجار في اجتماع عام ، قامت الصحف المعارضة تطالب بأن يترك وشأنه وحبذا أعزل دون حماية أو رعاية . ولكن سرعان ما أدركت الصحف جميعاً إنها كانت حمقاء وسبب حماقتها فتوزت الأخبار النافهة إلى الصفحات الأمامية والسطور الأولى في الصحف وإن كان زعيم الحركة الفاشية وهو سير صمويل موزلي قد دفع ثمن هذه الدعاية فانياً . ولكن مما لا شك فيه إن الحادث

كان دعاية ناجحة غاية النجاح .

يمثل هـذا الحادث عنصراً أساسيًّا في الدعاية الصحافية التي قوامها التكرار . وجرت العادة أن تكون كل جرعة من الدعاية لها قيمتها الاخبارية ، لأن قيمة الأخبار في الصحافة الحديثة لها قدرها وخطرها والحكم عليها قاس لا يرحم . وليست المعضلة في ملء أعمدة الصحيفة ولكن أن تضغط أخبار أربع وعشرين ساعة في حيز ضيق بأمر يدعو الى الشفقة بالقائمين بشئون الصحافة . وهناك نوع من الاعلانات الاخبارية المقنعة ويطلق عليها بالانجليزية Puffs (وهي اعلانات لهيئات تجارية أو سياسية توضع في صيغة أخبار دون أن يلحظ القارىء انها مقصودة لمجرد الاعلان) ، وقد أصبح الاعتراف بها حقيقة واقعة لا يمكن انكارها ، كما لا يمكن تفاديها بحال ، رغم ما تلقى من معارضة شديدة حدت بالمشرفين على الصحافة الى ضغطها واختصارها الى الحد الأدنى . والداعية الذي يعتمد على أوساط الحلول في عمله ، لا يلبث أن يجد نفسه بلا عمل فيجب عليه أن يصل بدعايته الى الذروة دائماً ، والاَّ أعطى خصومه الفرصة أن يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى محاربته .

الرئيس ومصارع الثيران

٢ — الثاني هو الأساس الثاني من أسس الدعاية السليمة : لا يعبأ الفرد العادي بالمعنويات ولكنه يهتم كثيراً بالشخصيات والحقائق . وقد أدرك الداعية الحديث هذه الحقيقة ، فهو لا يحاول فرض حججه فرضاً على العامة ولكنه يسعى بنشر تقريراته التي يذيعها الى كسب العطف على قضيته أو لتثير السخط على خصومه ، وغالباً ما يكون لمثل هذه الدعاية أثرها الفعال . ويجيء هذا الأثر عن طريق الحوادث يجمعها وتكون في مجموعها شاذة خارقة للعادة تترك أثراً عميقاً في النفس وان كان خادعاً . لأن من عادة رجل الشارع أن يناقش الأشياء الخاصة وينتهي بها الى مبادىء عامة .

ولا يسع الداعية أن يلتفت كثيراً الى هذا المبدأ عندما يكون هدفه التأثير في الجماهير . فبينما نرى القارىء يولي مسرعاً عن الدعاية الصينية القائمة على معاهدة الدول التسع ، نراه يقبل في حماس وشغف على قصة شارلي سنج الذي هاجر مفلساً معدماً الى الولايات المتحدة والذي غدى بناته الثلاث فيما بعد قابضات على السلطة في حكومة الصين وحالمها ومدام شيانج كاي شك إحداهن . ويلعبن دوراً خطيراً في تاريخ الصين الحديثة .

والمتكلمون من الطراز الأول وخطباء العلمية يدركون ويعترفون بصحة هذا المبدأ . فلا بد وان يتأكدوا من أن كل فرد من جمهور المستمعين يتتبع بشغف ما يناقشه الخطيب أو المتكلم . لأنه ليس من الصواب أن نرغم الأقلية على تتبع ما نقول اذا كان فيما نقول به

من آراء ما يخص الأغلبية الباقية من المستمعين ، والأجدى لنا أن نحاضر بالادلاء بأحاديث عن شئون مألوفة بادية العيان الى الأقلية النابهة من أن نحير الأكثرية بما نقول .

ومما يقوي هذا القول حقيقة أن من السهل على غالبية الناس أن تتبع بحثاً مطبوعاً سهل التناول مدعماً بالأدلة والبراهين ، من أن يستمعوا الى هذا البحث نفسه من فم خطيب على منبره ، فان الجهد الذي يبذله المستمعون لحصر انتباههم في أثناء الخطابة، أعظم منه في حال القراءة الهادئة الصامتة .

وقفن الهر متلر الى هذه الحقيقة واستوعبها فصار هذا المبدأ أحد القواعد الأساسية التي يسترشد بها ، واذا ما قارن نفسه بفيلد جورج وبنيام هولوج [1] فهو يعزو عظمة السياسي الانجليزي المنقطعة النظير الى البساطة التي يتمتع بها والتي لها السحر المبين في أذان السامعين ، فالسهولة التي تصبغ خطبه ، واليسر الذي يتجلى في تعبيراته ، والصور الواضحة الهينة التناول التي يوردها في أحاديثه دليل قاطع على قدرة رجل ويلز [2] السياسية الفائقة .

ولا يقتصر هذا على الدعاية الكلامية بل يشمل الدعاية الصحفية أيضاً، فواجب الكاتب أن يكتب في حدود الكلمات المألوفة لدى القراء ، ويجب عليه أن يستغل ميولهم ويفيد من جهلهم ، ولكي يوضح « وول ايرون » هذه النقطة يروي القصة التالية عن الحرب الاسبانية ، فان الصحافة الانكليزية في هذا البلد كان من السهل على الدعاية شراؤها بالمال تنفقه لتعيش وتبقى . نشرت هذه الصحف قصة ما عتمت الصحف الكبرى أن نشرت القصة ذاتها ، وهي تصف ان لإحدى كريمات الرئيس ولسن أحبت في أثناء زيارة لها في « بيرجوس » مصارع ثيران ، ثم ما لبثت أن تزوجت منه ، وأثمر هذا الزواج طفلاً ذكراً . ولكن الرئيس سلب التلب متحجره ، فأرغم ابنته على العودة الى أرض الوطن وهجر زوجها والتخلي عن ولدها ولم يمض وقت طويل حتى لقي البطل حتفه في حلقة السباق وأسلمت الأقدار الطفل الى جديه المعدمين اللذين كتبا للرئيس ولسن يستجديانه بعض المال لتربية حفيدهما ولكن ضاعت جهودهما هدراً ولم يظفرا منه بطائل رغم الالحاف في السؤال .

والدعاية الألمانية لم تنسج خيالها هذه القصة كان يعرف أن الرئيس ولسن هو الشخص الامريكي الوحيد الذي يمقته الفلاحون الاسبان . وان للاسبان غراماً بالأطفال لا يفوقه غرام ، وان بطل كل اسباني وأسبانية هو مصارع الثيران . وسمح هذه القصة في نظر الاسبان يعادله وقتاله تقدير المقربة منها حيث تفكر أن يخلق جواً يبدو فيه صادقاً صدقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

---

(١) كبير وزراء انكلترا في الحرب الكبرى . (٢) لويد جورج كبير وزراء انكلترا في الحرب الاولى

وقصص التعذيب والارهاب تزدهر أيما ازدهار في جو الحروب الخانق المسمم. فإنه من الضروري جمع وتركيز الكراهية القومية على العدو وعرف الدعاة أن خير الطرق لتنفيذ ذلك هو أن نعطي العواطف حركات مسرحية ونصبغها بألوانها ونضيئها بأنوارها، ويكون ذلك بالتركيز على شخصيات البارزين فإن شطحات الخيال وصبحاته في ابتكار قصص التعذيب أو تصويرها أو مسخها حتى تلائم الهدف الذي يُرمى إليه، قد وصلت آماداً بعيدة وبلغت آفاقاً نائية في الحرب الكبرى الماضية (١٩١٤ — ١٩١٨) بصورة تدعو إلى الدهشة والاعجاب . وقد انغمس كل من الجانبين المتحاربين في إبراز صور التعذيب وألوانها . ولكن كان لدعايات الحلفاء نصيب أوسع وأكبر من الذيوع والانتشار من دعايات الأعداء لسيطرة الحلفاء على طرق المواصلات ومحكمهم فيها ، فقد كانوا سادة الموقف والقابضين على ناصية الأمر .

وقد أفاد الحلفاء ، ولا مراء ، مما ارتكب الألمان من أخطاء فاحشة فإن « كابتن فريت » عند ما حاول أسر غواصة ألمانية بسفينة تجارية غير مسلحة ثم أغرق، أعلن الألمان أن حقه كأسير حرب قد سقط ، وأعدموه رمياً بالرصاص . وقد هزّ إعدام هذا البحار البريء ، العالم أجمع وألحق بالقضية الألمانية خسارة لا تقدّر . فقد استغل الداعية هذا الحادث ، كما استغلّ حادث المرضة « إديث كافيل » من قبل عند ما صور الحلفاء بطولتها في جلال وتعظيم جعل حياتها مشكاة تضيء فلسفات سني الحرب السود . فإن الهيئة التي أصدرت حكم الاعدام كانت من النساء وقصر النظر لدرجة ظنت معها أن موت « إديث » لا يهم . فطالما أعدم كثير من النساء من كلا المعسكرين ، من قبل . ولأنها كانت تشترك فعلاً في مؤامرات سرية تدبر خلف الخطوط الألمانية ، فكشفت المحكمة باصدارها حكم الموت عن جهل مطبق بالطبيعة الانسانية والنفس البشرية .

وكان للحلفاء أيضاً ميزة كشّابها البارعين والرسّامين والعباقرة الذين كانت كتاباتهم ورسومهم مرّة المذاق شديدة الوقع على الأعداء، فإنه من المستحيل أن تنظر إلى إحدى صور « زاميكي » الهولندي دون أن تؤمن بمدى المعونة الهائلة التي قدّمها للحلفاء ، فقد صوّر في إحدى روائعه اعتداء الألمان على السفن المحايدة وإغراقها في لوحة تمثل اجتماع شرذمة من جنود الألمان احتمعت منهالكة على نفسها في برج الحراسة في غواصة حيث يراقبون اقتراب زورق وقف به السيد المسيح وكتب تحتها عبارة وجيزة ولكنها بارعة : « إنه يبدو محايداً . فلنغرقه » . مثل هذه الصورة كان لها تأثير صدع أركان الدعاية الألمانية ، وقوّض أسسها في نفاها الحلفاء حينذاك

هـ بيه سليم تاوضروس الأسيوطي